القرآن ومناهج التحليل الثقافي
"نحو مدخل منهجي لمقاربة الثقافة من منظور قرآني"

د.محمد بابكر العوض عبد الله*

مقدمة منهجية

يبدو التحدي الذي يواجه مجتمعات المسلمين اليوم في كثير من جوانبه تحدياً ثقافياً، حيث أخذت مظاهر الاستلاب الثقافي تتسع وتشيع داخلياً على حساب المعاني والمظاهر الثقافية للإسلام، كما أنّ الأزمات الثقافية والحملات الإعلامية التي تعرض لها الإسلام وعالمه من الخارج؛ مع ضعف الخطاب الثقافي الموجه بإزاء تلك الحملات عكست أيضاً وأبانت عمق الهوة بين روح القرآن وثقافة المجتمعات الإسلامية المعاصرة، إضافة إلى استحكام سوء الفهم الثقافي للإسلام وعالمه على أجزاء واسعة من العالم. لقد عالج القرآن الحياة الإنسانية معالجة كلية شملت مناحيها العلمية والعملية والعادية والتعبدية، وتتبعت الذات الإنسانية في تقلباتها على أفقي الزمان والمكان وتجاوز خطاب القرآن للإنسان بما حواه من رصد وتوثيق ومعايرة لأشكال الفعل الاجتماعي وصيغ التعبير الإنساني جملة المحددات الثقافية التي حصرت خطاب غيره من الكتب الدينية فتأكد القرآن بخصائصه البنائية وآثاره الوجودية خطاباً معيارياً عابراً للثقافات. كما تعين مرجعاً توثيقياً للتجربة البشرية المتسعة على أفقي الزمان والمكان بتجلياتهما الغيبية والشهودية. وقد نوه القرآن بمنجزات الإنسان بأبعادها الوظيفية والإبداعية وقيمها الجمالية و آثارها الأخلاقية والروحية ومآلاتها الدنيوية والأخروية باعتبارها بمنطق الوقع أولاً شواهد على سعي الإنسان إلى تخليد ذكره وإعمار واقعه؛ كما انها على أفق البصيرة ثانياً معالم دالة على عظمة خالقه. وعلامات مؤكدة على طبيعة الرسالة الوجودية الملقاة على عاتقه، ومن خلال مواءمة القرآن في خطابه بين تلك الأبعاد تخلق نموذج إنساني رسم علامة فارقة في مسيرة التطور البشري، وظل عطاؤه الروحي والحضاري مستمراً على انقطاع ابتعاث الرسل وظهور الأنبياء؛ فتميز ذلك النموذج البشري باستدامة ولائه الروحي لخالقه الواحد الأحد من ناحية ولرسالته الوجودية من ناحية أخرى { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } (ق:56) ، وما كان ذلك مجرد أمراً اختيارياً يقوم على الافتراض المثالي، بل كان محكاً اختبارياً شاقاً وعنيفاً مرت خلاله التجربة الإسلامية بابتلاءات واسعة وتحديات عظيمة ليست هي محل نظرنا هنا وهو أمر مفارق لما قد يتبادر عند الحديث عن الثقافة بدلالاتها الحالية، حيث يبرز ما يعرف بالقوى الناعمة وتتوارى كل مظاهر القوى الخشنة وهو الواقع الذي سعت الرسالة الإسلامية لإرساله في سياق من التضحيات الجسام.

نعم كان القرآن الكريم من ناحية رمزيته الثقافية، ومن كونه موجهاً حضارياً يمثل عاملاً جوهرياً في الشهود الحضاري للإسلام، الذي صمد كخيار إنساني مورست ضده كل أشكال العسف والعنف، ومحاولات الطمس والإفناء، ولكنه ظل يمارس دور المرجعية الموحدة لأمة المسلمين متباينة اللغات، تماماً مثلما ظلت الكعبة قبلتهم المشتركة على

* أستاذ مساعد ، معهد إسلام المعرفة ، جامعة الجزيرة ، ودمدني.

اختلاف مواقعهم، ليشكلا برمزيتهما الثقافية والتاريخية ودلالتهما الحضارية عقبةً كأداء أمام المساعي التي بذلت على مر العصور للقضاء على الإسلام ديناً وحضارة،[1]

ولعل تلك الخواص الثقافية والعلامات الحضارية التي أشارت إليها رسالات السماء[2]، وأشادت بها ثقافات الأرض، وذلك النمط من الحياة الذي لا يزال يفرض وجوده المستقل ويلفت بخصوصيته وتميزه وحضوره الطاغي أنظار أولي البصائر من البشر،[3] هو ما يحدو إلى دراسة متأنية للبعد الثقافي في القرآن الكريم. في هذا الإطار يأتي هذا البحث لمعالجة موضوع الثقافة ناظراً، إليها من منظور قرآني متوسلاً بمداخل التحليل الثقافي كأداة منهجية لدراسة وتحليل المحتوى القرآني.

1- أهمية الموضوع:

وموضوع الثقافة واضح الأهمية خاصة في ظل تصاعد حدة الانتقاد والهجوم الموجه للقرآن من منظورات ثقافية متباينة، بعضها غربي تقليدي. وبعضها إعلامي موجَّه[4].

ويزيد على ما سبق ما ذكرنا من مفارقة واقع المجتمعات الإسلامية للمثال القرآني حيث يبرز على الأفق الثقافي للمجتمعات الإسلامية(الفنون)و(الإعلام)و(الزي والمظهر) تعبيرات ثقافية تكاد تناقض الخصوصية الثقافية للرسالة الإسلامية وتميزها كنمط حياة له محدداته الخاصة.

كما يؤكد الانتاج اللاإنساني حول الموضوع الحاجة الماسة إلى إعادة مقاربة موضوع الثقافة،وفق رؤية أكثر تجريداً وإطار أكثر موضوعية في نظرته للإنسان. ولا شك أن القرآن بمطلقيته قادر على تمثيل ذلك الإطار الموضوعي المتجرد.

---

[1] وهو ما عبر عنه"وليم جينورد بلجراف" الذي يقول: "متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب يمكننا حينئذ أن نرى العربيّ يتدرج في سبيل الحضارة [المسيحية الغربية] التي لم يبعده عنها إلا محمد وكتابه" والمعنى نفسه كرره المبشر وليم موير: « إن سيف محمد والقرآن هما أكثر أعداء الحضارة والحرية والحقيقة الذين عرفهم العالم عنادًا حتى الآن»أنظر: إدوارد سعيد، الاستشراق، ص 168.

[2] أنظر قوله تعالى : (مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً) "الفتح: 29

[3] كما لفت من قبل أولوا العزم من الرسل قال موسى "إني لأجد فى الألواح أمة أناجيلهم فى صدورهم يقرأونها وكان من قبلهم يقرأون كتابهم نظراً ، حتى إذا رفعوها لم يحفظوا شيئاً ولم يعرفوه وإن الله أعطاهم من الحفظ شيئاً لم يعطه أحداً من الأمم ، رب اجعلها أمتى.قال تلك أمة أحمد" أورده البغوي في تفسيره , و أبي نعيم في الحلية و ابن عساكر في تاريخه , بأسانيد ضعيفة .. من رواية كعب الأحبار .. لكن جاء هذا الخبر مقطوعاً من تفسير قتادة رحمه الله في قوله سبحانه و تعالى : (أخذ الالواح) , ورواه ابن جرير الطبري في تفسيره من طريق : بشر (بن معاذ), قال حدثنا : يزيد (بن زريع العيشي) , قال حدثنا : سعيد (ابن ابي عروبة) , عن قتادة, نحوه. .و هذا إسناد صحيح رجاله ثقات

[4] كالحملات المثارة حول الرموز الثقافية الإسلامية حيناً بعد حين،منها حملات الحجاب في فرنسا وألمانيا والرسوم والأفلام المسيئة للرسول في الدنمارك والسويد والحملة ضد المآذن في سويسرا؛ وحملات ذات طابع ثقافي يتزعمها مسلمون مثل "(سلمان رشدي)وروايته الآيات الشيطانية و(إرشاد مونجي)وكتابها (الخلل في الإسلام)و الأكاديمية(أمينة ودود) ومواقفها التي أعربت عن سوء فهم ثقافي للقرآن الذي قرأته من منظور النوع.

فقد مثَّل القرآن محوراً لمشروع تغييري يخاطب البشرية بعموم ولئن كانت الثقافة العربية قد مثلت نموذجاً مصغراً لمعانيه، فلقد كان التاريخ الإنساني بعموم مسرحاً لقيادة القرآن لتحولات كبرى عاشتها الحضارة الإنسانية المحيطة بالجغرافيا العربية كالحضارة الفارسية والرومانية وتأثرت بها ثقافات وحضارات يفصلها عن الجزيرة العربية مسافات شاسعة كالمغولية والصينية. والأهمية الثقافية للقرآن الكريم مقررة تاريخياً ومعرفياً، والوعي بها تعززه كثير من الشواهد التي حفلت بها الكتب وعززتها ثقافات الشعوب المسلمة على امتداد العالم الإسلامي.

2- منهجية التحليل:

وتستدعي خطورة المسألة الثقافية خاصة في تطوراتها الراهنة البحث عن مدخل منهجي يتميز بالأصالة في دلالته على موضوع الثقافة، والموضوعية في تعامله مع المحتوى القرآني، وشموله في النظر إلى الظاهرة الثقافية في أبعادها المختلفة.

وتعني مناهج التحليل الثقافي بدراسة المجتمع وأنماط السلوك والعادات والتقاليد السائدة فيه والنظم والآليات التي تحكم نشاطه السياسي والاجتماعي والاقتصادي، كما تعني مداخل التحليل الثقافي بدراسة الادراكات والتصورات العقلية, والعلاقات القيمية، التي تسود المجتمع، واللغة وأساليب التعبير المستخدمة للتعبير عن الذات والنفس والأخر، وتطور المفردات والرموز...في المتخيل اللغوي والفكري والثقافي.

و يسعى البحث لاختبار فاعلية مناهج التحليل الثقافي في التعامل مع القرآن الكريم الذي تؤكد طبيعته التكوينية ابتداءً أنه ليس ظاهرة ثقافية، إنسانية المنشأ. فالقرآن الكريم يتضمن في طبيعته رسالة شاملة تستوعب الإنسان في أبعاده الكلية وخطاباً عاماً موجهاً إلى الناس كافة وإلى المجتمع البشري بمختلف تبايناته الثقافية والإثنية، فهو رسالة متجاوزة لحدود الزمان والمكان .. تخاطب الثقافات الأخرى تماماً وفي ذات الوقت وبذات القدر الذي تخاطب فيه الثقافة العربية، بيئة التنزيل ومجتمع الإسلام الأول. وهو ما يتطلب معرفة وتقدير للبعد الثقافي لمجتمع الدعوة.

مناهج التحليل الثقافي:

ويفترض البحث أنّ مناهج التحليل الثقافي هي الأقدر على تحقيق تلك الغايات المشار إليها آنفاً، أولاً لكونها لا تتوقف في حدود التعامل الوظيفي القائم على الاستشهاد اللغوي الاستنباط الفقهي للأحكام أو ثانياً: لدلالة هذه المداخل على المتلقين أكثر من دلالتها على المحتوى والمضمون مما يعني إمكانية تفعيلها داخل وخارج الدائرة الإسلامية مما يستوجب اختبارها لاستبطان الدلالات المحتملة لدى المتعامل غير المسلم من القرآن، وثالثاً لدلالتها على الرؤية الكلية الناظمة للمحتوى القرآني ومن ثم بيان الرؤية القرآنية للموضوعات المدروسة بإزاء الرؤى الآخرى، الإسلامية منها وغير الإسلامية وهو مطلب عزيز في ظل التطورات الدراماتيكية للواقع الإنساني.

ويمكن ملاحظة ندرة الدراسات القرآنية التي تعتمد مبدأ التحليل الثقافي فمع توفر إشارات هنا وهناك للمحتوى والأثر الثقافي للقرآن الكريم إلا انه يندر وجودها مجتمعة حول عنوان واحد، ويمكن إرجاع ذلك إلى عدة اعتبارات منها:

1. تركيز الدراسات القرآنية المعاصرة على الجوانب العلمية (الإعجاز) وإهمال الأبعاد الثقافية للخطاب العلمي المتعلق بالقرآن.

2. الإعتقاد بان مفهوم الثقافة مفهوم غربي لا دلالة له على المحتوى القرآني
3. الصبغة العلمانية التي وسمت معظم الدراسات الثقافية للقرآن[5].
4. التحفظات التي يبديها البعض تجاه هذا النوع من المداخل مخافة أن يفضي إلى تعزيز التوجهات القائلة بظرفية وتاريخية القرآن.

3- الأسئلة المنهجية:

ويأتي هذا البحث لمقابلة جملة من التساؤلات منها:

هل ناقش القرآن موضوع الثقافة؟ وما هي الموضوعات الثقافية التي ناقشها القرآن؟كيف تمت معالجة موضوع الثقافة في التراث الفكري الإسلامي المعاصر ؟وما موضع القرآن من تلك المعالجات؟ ما هي الأسباب التي أدت إلى ندرة الكتابات الثقافية حول القرآن؟ ما هي الآثار التي تركها القرآن على الواقع الثقافي العربي والإسلامي؟ وهل صحيح أن القرآن قد أثر سلباً على أشكال التعبير الثقافي في البيئة العربية (الشعر) ؟ وهل يمكن التبرير أصولياً للمواقف المتطرفة من الفن والأدب التي يتخذها بعض المسلمين؟

إجابة على الأسئلة المنهجية جاءت محاور البحث لتضع الإطار المفاهيمي للموضوع مناقشةً مفهوم الثقافة في إطار علاقته بمفهومي الوحي والعلم، واستعرضت المداخل المنهجية التي استخدمها الباحثون المسلمون لمعالجة الموضوع، وعبر استعراض العنصر الأساسية للثقافة سعى البحث لتعريف النمط الثقافي القرآني.

وبين هذا وذاك نحتاج إلى وقفة على الدلالات المباشرة لمفهوم الثقافة في المستويات التداولية السائدة، فمعلوم أن الثقافة بمفهومها ومنطوقها التداولي القائم هي مصطلح إنساني أصلت له الثقافة الغربية بعمق واتساع كونه مفهوماً دالاً على جوهر تلك الثقافة الدنيوية، إلا أن له دلالته العامة على التجربة الإنسانية بإجمال وتعينت كلمة ثقافة (Culture) مفردة ذات دلالة موجبة في حياة الإنسان المعاصر بانتمائاته المختلفة.

1- فكرة الثقافة وطبيعتها:

وقد تمت معالجة مفهوم الثقافة في النسقين العربي والغربي على نحو لا نحتاج معه سوى مجرد التذكير ببعض المسائل المتعلقة بالمفهوم، فالثقافة باعتبارها مفهوماً معاصراً فإنها بلا شك لم ترد -بمعناها الحالي- في القرآن فكلمة ثقافة المتداولة عربياً اليوم ما هي إلا محاولة لتعريب كلمة (Culture) الواردة من الثقافات الغربية، ومن ثم فإن محاولات التقريب بين مفهوم الثقافة وما ورد في القرآن من مادة "ثقف" تبدو محاولات غير مجدية. ومكمن المفارقة أن الثقافة (Culture) في التجربة الغربية تبدو أكثر التصاقاً بالطبيعة (Nature) تلهمها وتصنعها، تصوغها وتضبط مخرجاتها، فالإنسان مهما تسامى فهو وفق هذه الرؤية "ابن للطبيعة ويبقى دائماً جزءاً منها"[6].وهو ما كرس له العلم المعاصر عبر الرؤية الداروينية التي تختزل الفرق بين الإنسان والحيوان في كون الإنسان يمشي منتصباً ويستخدم في تواصله اللغة

---

[5] ولعل منها كتاب محمد شحرور "القرآن والكتاب"وكتاب آمنة ودود "القرآن والنساء إعادة قراءة النص المقدس من وجهة نظر المرأة" وكتاب الجابري "مدخل إلى فهم القرآن".

[6] يجوفيتش، علي عزت: الإسلام بين الشرق والغرب، دار بافاريا،ص47.

الرمزية والمنطوقة. والثقافة التي لا تضع نصب عينيها التغيير سوف تؤول إلى التفاهة كما يقول تيري إيجلتون، الذي يعرض مفهوماً متقدماً للثقافة حين يعتبر أن "فكرة الثقافة هي التي تنقلنا من الطبيعي إلى الروحي"ولكنه سرعان ما يعود بنا إلى نقطة "دارون" حين يستطرد قائلاً"والحاجة إلى الثقافة هي التي تنقلنا من الطبيعي إلى الروحي، والحاجة إلى الثقافة تشير إلى وجود ضرب من النقص والافتقار في الطبيعة،كما تشير إلى قدرتنا على الارتقاء إلى ذراً لا تطولها بقية نظرائها من مخلوقات الطبيعة،هي أمر ضرور يفرضه شرطنا الطبيعي، الذي هو شرط غير طبيعي إلى حد بعيد قياساً بشرط أولئك النظراء"[7].

يجب أن ننتبه إلى أنّ موضوع الثقافة هو التعبير عن الإنسان كذات؛ كما أنه في الوقت نفسه تعبير عن المشروع الإنساني؛ اتجاهاته آماله وطموحاته، مما يكسب التعبير الثقافي غائية تستهدف تغيير الواقع وإعادة توجيهه نحو اهداف عليا وقد يتم تعريف الثقافة من أفق مناظر لسابقه بأنها هي عمل الإنسان والخلق هو عمل الله " وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ.(الصافات:96)". أن الخلق والأمر في المفهوم القرآني يشيران (غالباً) إلى الفعل الإلهي بينما الإبداع والثقافة بمعناهما الوضعي يدلان على الفعل الإنساني فصح قولنا (الله يخلق والإنسان يصنع الثقافة).

وتأسيساً على ما سبق من مقدمة ومسلمات يصبح مدار هذا البحث النظر في مواضع إشارة الوحي الإلهي إلى الفعل الإنساني، واستخلاص الإشارات والعبارات ذات الدلالة على المسألة الثقافية فيه.

ثانياً :كيف تمت معالجة موضوع الثقافة إسلامياً؟

ولعلنا نزداد قناعة بأهمية الوحي القرآني في مثل موضوع البحث إذا ما استعرضنا مضامينه المعرفية في سياق التاريخ والتجربة الإنسانيين. حيث تمثل مسألة الثقافة باعتبارها حقيقة وجودية ملازمة لحياة الإنسان أفقاً تتجلى عليه الفروق في الرؤية بين المنظور القرآني والمادي للإنسان، فلإنسان يولد باستعداد بايولوجي للتفاعل الاجتماعي والتواصل الرمزي مع محيطه[8]،مجهزاً لدوره الثقافي ورسالته في الحياة ومهيئاً للتلقي وقابلاً للتوجيه وقد روى البخاري في صحيحه عن رسول الله ρ أنه قال: (مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّايُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ).

وإذا كان من المحال تصور وجود الناس في هيئة ذوات مفردة صامتة معزول بعضها عن بعض، فإنّ من المحال أيضاً وجود اجتماع إنساني لا يسفر عنه نمط ثقافي وتعبير عن خصوصية تميز ذلك الاجتماع عن سائر المجموعات البشرية الأخرى وقد جعل الله هذا الشعور بالخصوصية الاجتماعية هبة إلهية " لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاء اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَـكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ(المائدة: 48)" وتشكل الثقافة الأفق الأول الذي يتمظهر عليه هذا التباين بين المجموعات الإنسانية. ولكننا وفي حدود هذا البحث سنعمد إلى استعراض بعض الكتابات الإسلامية المعاصرة لتبين مدى حضور المنظور القرآني في ثنايا تلك المعالجات للموضوع.

---

[7] إيجلتون،تيري : فكرة الثقافة ، ص 22.

[8] { قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ 23 قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} (الملك : 23 ، 24) .

لقد شغل موضوع الثقافة اهتمامات عدد من المفكرين المسلمين منهم على سبيل المثال المفكر الجزائري مالك بن نبي الذي نشر كتاباته ضمن سلسلة بعنوان (مشكلات الحضارة) وقد شغلت المسألة الثقافية حيزاً مقدراً في كتاباته خاصة كتاب شروط النهضة الصادر عام1948م، وكتاب مشكلة الثقافة الصادر في العام 1958م . ويمكن أنّ نعتبر كتابه الظاهرة القرآنية 1946م من الدراسات المتقدمة في مجال التحليل الثقافي للقرآن الكريم وقد تنبأ في كتابه "رسالة المسلم في الربع الأخير من القرن العشرين" الصادر 1973م بانهيارات كبرى للانساق الثقافية المادية. وهو ما تحقق فعلاً في العقد الأخير من ذلك القرن الميلادي وكان من ثمراته أن انفسح الأفق أمام الملايين من الشعوب المسلمة المغيبة في غياهب الشيوعية في الاتحاد السوفيتي وغرب أوروبا، وكان من ثمرات ذلك ظهور الاستاذ علي عزت بيجوفيتش[9]كقائد تحرري صلب وصاحب واحدة من أنضج الكتابات الإسلامية حول مفهوم الثقافة عبر كتابه (الإسلام بين الشرق والغرب) هذا إلى جانب عدد كبير من الكتابات المحدثة التي اهتمت بدراسة المسألة الثقافة في إطار مستقل إلا انه كما ذكرنا ندر أن تتم معالجة قضية الثقافة في إطار قرآني إلا في حالات نادرة منها المحاولة الجادة للكاتب السعودي زكي الميلاد الذي أكد أن القرآن الكريم قد حوى إشارات مهمة تستدعي التوقف عندها والبدء منها لتحليل فكرة الثقافة ومع أهمية هذه الإشارات إلا انه من النادر الإلتفات إليها والكشف عن قيمتها في الكتابات العربية والإسلامية التي عالجت فكرة الثقافة .. ولعل ذلك –حسب الميلاد- مما يفسر الضعف العلمي والتأخر المنهجي .. في مجال فكرة أو نظرية الثقافة[10].

ولعل كثير من هذه الأطروحات الإسلامية لموضوع الثقافة جاءت في إطار المدافعة مع تيارات فكرية أخرى ظلت تنظر إلى الأصول الإسلامية باعتبارها روافد لمشكل العقل العربي والإسلامي، بذات القدر حاولت بعض مدارس التغيير إرجاع مشكل الثقافة في العالم العربي والإسلامي إلى التفكير الأصولي، والربط سببياً بين النظرة التقديسية للقرآن وتدني الذوق الفني لدى بعض المنتسبين للإسلام، ولعل ما أثير حول كتاب طه حسين (في الشعر الجاهلي) يمثل نموذجاً للحالة المذكورة.

ولعل التقليد الجاري في سياق مثل هذه الدراسات والذي لن نتخطاه ونحن نتلمس موضوع الثقافة في القرآن الكريم يتمثل في تحديد عناصر الثقافة حيث يبرز إدوارد تايلور بتعريفه الأشهر على مستوى الفكر الغربي وهي البيئة التي تولد عنها المفهوم مقارنين له بما قدمه عالم الاجتماع التونسي محمود الذوادي حول مفهوم الرموز الثقافية من ناحية أكاديمية والتحديد الذي وضعه زكي الميلاد للآيات الأكثر دلالة على موضوع الثقافة من ناحية تأصيلية.

لقد أسهم تيلور كما ذكرنا إسهاماً كبيراً في تطوير الدراسات الثقافية والدراسات المقارنة للأديان وكان أحد رواد الاتجاه التطوري،ومن أبرز المؤيدين للنظرية البيولوجية في نظرتها للإنسان. ويرى تايلور أن الثقافة تطورت من الشكل غير المعقد إلى الأشكال المعقدة مبدياً اتفاقه مع مورغان بشأن مراحل التتابع الثقافي من الوحشية إلى البربرية فالمدنية. وكان كتابه "أبحاث في التاريخ المبكر للبشرية وتطور المدنية" في عام 1869 والذي أعقبه كتابه"المجتمع البدائي"في عام 1871 قد انطلقا من وجهة نظر تطورية.ويرجع الفضل إلى تايلور في ابتكار مصطلح الثقافة مفهوماً أنثروبولوجياً

---

[9] "اول رئيس لجمهورية البوسنة والهرسك"

[10] زكي الميلاد: المسألة الثقافية ،ص218

بحسبانه" كل ما يفهم من العلم والعقيدة، والفن والأخلاق، والتقاليد والأعراف، وأية قدرات أخرى يكتسبها الإنسان بصفته عضواً في مجتمع".وقد عُدَّ تعريف تايلور للثقافة في حينه أحد أهم التعريفات لكنه ومع تقدم المناهج العلمية وتوسع الأبحاث والدراسات الميدانية لم يعد هذا التعريف مناسباً. تبدو محدودية هذا التعريف في كونه اعتمد على الدراسات الاثنوغرافية الوصفية التي سجلها الرحالة ولم يتجاوز مجرد كونه سرداً وصفي لعناصر الثقافة ومحتواها.[11]

وفي تصنيفه للرموز الثقافية يبدو واضحاً أن محمود الذوادي تأثر بتعريف تيلور السابق فقام بتعريف الثقافة بأنها "ذلك الكل المتمثل في اللغة والفكر والدين والمعرفة/العلم والقوانين والقيم والأعراف الثقافية، التي لن نستجلي خبايا السلوك البشري بدون أولوية الرجوع إليها ،إذ الإنسان كائن رموزي ثقافي بالطبع، يتناول ككل مركب "[12] وقد حاول الذوادي كما تشير الدراسات المختلفة التي أجراها والتي اجريت حول نظرية الرموز الثقافية ومن موقعه كعالم اجتماع أن يوائم بين الرؤية الإسلامية والرؤية الأكاديمية لمفهوم الثقافة.

ومن خلال انشغاله الأساسي بموضوع المقاربة القرآنية لموضوع الثقافة حصر زكي الميلاد[13] الإشارات القرآنية للثقافة في خمس آيات :هي {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَـؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ }(البقرة: 31) "و { فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ} (الحجر:29) "و{ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ } (العلق :1)"و{أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء} (إبراهيم :24) "و{ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}(الروم: 30)وتستحق عملية حصر واختيار الآيات الدالة على الثقافة –التي قام بها الميلاد- نظراً متأنياً وهو ما لم تسعفنا حدود هذا البحث في القيام به.

ومن ثم فإننا ودون مزيد من الجدل حول مفهوم الثقافة إلى سرد جملة العناصر الواردة في المحاولات الثلاث لكل من تيلور والذوادي والميلاد في: الفطرة والطبيعة الأولية، المعتقدات والعبادات،المعارف والعلوم، والفنون، السلوك والأخلاق ،القانون والأعراف والعادات والتقاليد.

القرآن	زكي الميلاد	الذوادي	تيلور
فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا	الفطرة		
وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا	تعليم الأسماء	اللغة	
فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي	التكريم الإلهي بالنفخ والسجود	والدين	والعقيدة
اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ	إقرا	العلم والمعرفة والفكر	العلم

[11] http://www.aranthropos.com/

[12] مجلة : المنار الجديد (عدد:33ص: 43)السنة التاسعة محرم :1427هـ - يناير:2006م . بعنوان : " مفاهيم عربية جديدة في العلوم الاجتماعية ".

[13] أنظر: الميلاد، زكي: المسألة الثقافية من أجل بناء نظرية في الثقافة،المركز الثقافي العربي(بيروت 2005م). ص218

"أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ"	كلمة طيبة	والقيم	الأخلاق
		والأعراف	والتقاليد والأعراف
		الرموز الثقافية	الفن
		القوانين	القوانين

سنلاحظ من خلال التحليل المفهومي السابق أن الثقافة بما هي فعل إنساني، ومنجز بشري ورؤية للعالم، يعاد تكييفها قرآنياً على نحو كلي، حيث يبدو التداخل بين الرؤية القرآنية للعالم والمنظور البشري على نحو يمنح الثقافة أبعاداً لا يمكن استحضارها في إطار المنظورات الأخرى، وهو ما توسع المفكر الياباني (توشيهيكو ايزوتسو) في بيانه في كتابه "الله و الإنسان في القرآن: علم دلالة الرؤية القرآنية للعالم رؤية من الخارج للداخل". مقاربة جريئة تعاملت مع القرآن باعتباره رؤية مستقلة للعالم ومعتبرةً إياه توثيقاً للحوار والتواصل بين الله الخالق والإنسان المخلوق، وقد اشتبك الكاتب مع اخطر المشتبهات الثقافية في الوحي القرآني بدأ بمسألة التواصل بين أفقي الوجود المطلق للخالق والوجود النسبي للمخلوق عبر ظاهرة الوحي فمسألة اللغة موازناً بين عالمية القرآن وخصوصية اللغة التي نزل بها.

ويرى (إيزوتسو) أن أكثر الصفات التي تميز الأديان الثلاثة الكبرى ذات الأصول السامية – اليهودية والمسيحية والإسلام – هي تلك النظرة الشائعة فيها من أن المصدر التاريخي الحقيقي والضامن النهائي لصدق تجربة المؤمنين الدينية يتمثل في حقيقة أساسية هي أن الله قد أظهر نفسه من خلال اللغة، وأن ذلك لم يتم بلغة غير إنسانية غامضة ، بل بلغة مبينة قابلة للفهم، وهذه هي الحقيقة الأولى والحاسمة، فمن دون هذا الفعل الأساسي من جانب الله ، لن يكون ثمة دين حقيقي على الأرض ، وفقاً للفهم الإسلامي لكلمة دين .. فقد ظهر الإسلام عندما تكلم الله . والثقافة الإسلامية كلها بدأت مع الواقعة التاريخية التي تتمثل في أن الله خاطب الإنسان باللغة التي يتكلمها هو . إن هذه ليست مجرد مسألة إله " ينزل " كتاباً كريماً ، إذ تعنى بصورة أساسية ، أن الله قد تكلم ، وهذا هو بالضبط ما تعنيه كلمة " وحي ".[14]

ويعتقد ايزوتسو أنّ للوحي في السياق القرآني وجهين لهما الأهمية نفسها: أحدهما يتعلق بكونه مفهوم " كلام " بالمعنى التقني الضيق للمصطلح في تميزه عن اللغة " اللسان " ، والآخر متعلق بحقيقة أن الله اختار العربية من بين كل اللغات الثقافية في ذلك العصر ، عمداً لا اتفاقاً ، لكي تكون إداة الكلام الإلهي ، كما يؤكِّد القرآن في مواضع عدة .. إن كلاً من هذين الوجهين كان له أصداء عميقة في تاريخ الفكر الإسلامي .. ومن خلال التفاعل الضروري بين الوحي الإلهي والعلم البشري والتنسيق الدقيق بين (مطلقية) حكم القرآن الكريم و(مرونة) حكمة السنة المطهرة و(دينامية) الواقع البشري

[14] أنظر. إيزوتسو، توشيهيكو : الله والإنسان في القرآن الكريم، ترجمة هلال جهاد. المنظمة العربية للترجمة ، بيروت 2007م.

المتمادي في صيرورته وتطوره وكدحه إلى الله تعالى تتولد المعرفة الإسلامية متخذاً معناها الخاص وتنمو وتتجدد وتكتسب أهم خصائصها بموازنتها بين الإطلاقية والظرفية وبين الربانية والإنسانية وبين الثبات والتطور ليصبح العلم تبعاً لذلك مظهراً من مظاهر العبودية لله، لا تجلياً من تجليات الصراع الوجودي بين الإله والإنسان كما تقول الوضعية.. إنّ خلود الرسالة الإسلامية وامتدادها زماناً ومكاناً رهن بهذا التفاعل الخلاق القادر على توليد العلم التوحيدي والإيفاء بالاحتياجات المعرفية المتجددة للإنسان؛ وهذا معنى أساسي يعطي كلمة علم بين تعريف تيلور وتعريف الميلاد دلالتين مختلفتين بدرجة قد تصل لحد التناقض.

إنّ ما يجعل " الوحي " نوعاً خصوصياً وغير طبيعي كهذا من الظاهرة اللغوية رغم تشكله من ذات مادة الكلام البشري هو أن المتكلم فيه هو الله، والمستمع هو الإنسان . وهذا يعني أن " الكلام " هنا يتم بين نظام وجود خارق للطبيعة ، ونظام وجود طبيعي ، لذا ، فليس ثمة توازن أو انسجام وجودي بين المتكلم والسامع . ففي كلمات الأخذ والرد المعتادة يكون كل من المتكلم والسامع على المستوى نفسه من الوجود ، ويقفان على أرضية التساوي الأنطولوجي"

ويستلزم هنا التأكيد والتسليم بأن الوحي الكريم ظاهرة وجودية متزامنة ومرتبطة مع وجود الإنسان في هذا الكون. وأن الوحي القرآني _ تأسيساً على المسلمة السابقة _ ليس منتجاً ثقافياً بأي حال من الأحوال؛ وهو وإن ارتبط بالإطار التنزيلي زماناً ومكاناً ومع المعطيات الظرفية اجتماعية كانت أو تاريخية يظل وحياً إلهياً، وشواهد ذلك ظاهرة في كلٍ من الأساليب والدلالات القرآنية، وهو ما يستدعي التمييز بين البعدين الإلهي والانساني في تلك الظاهرة ومن ثم الثقافي وغير الثقافي في عملية التواصل التي أسس لها القرآن بين الإنسان ومحيطه الوجودي بأبعاده الموزعة بين أفقي الغيب والشهادة.

الوحي الإلهي والرؤية الإنسانية للعالم:

إنّ بناء صورة حقيقية للإنسان والعالم يتطلب إلماماً كلياً بمجمل التجربة البشرية منذ لحظة الوجود الأول إلى اللحظة الراهنة ؛واستيعابها وفق عقلية حكيمة؛ وبصيرة نافذة ؛قادرة على تجاوز محددات الواقع ومعوقاته وتصور النتائج المترتبة على معطيات الحاضر و مآلاته، واستكشاف قطاع أوسع من أفق المستقبل، وهو أمر متعذر على إنسان مفرد محكوم بمحددات الزمان والمكان, ومحدودية التجربة الإنسانية الظرفية, وهنا يكمن تميز التصور الإسلامي للوجود المبني على الوعي بنسبية المعرفة الإنسانية وظرفية التجربة البشرية مما استدعى تزويد هذا الإنسان بضوء كاشف ونافذة منفتحة على أفق المعرفة المطلقة؛ ومده بملكات تؤهله لمواجهة مصيره في محيط يكتنفه من الغيب أضعاف ما تظهره المشهودات، وذلك من خلال مركزية الوحي كمحدد رئيس من محددات الرؤية الإسلامية للكون، وتعين العقل كأداة ضرورية للتعامل مع الوحي، والتأكيد على مبدأ التسخير القاضي بقابلية الكون للتحكم الإنساني.

ويعرّف القرآن نفسه بإزاء الإنسان. كهدف للرسالة. بأنه رسالة من الله عز وجل الذي له الخلق بإطلاق فكل ما صنع الإنسان هو خلق الله. وله الأمر باطلاق وأعظم أمره الوحي الكريم، المتنزل على نبيه بواسطة أمين الوحي جبريل {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ

بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا }(الطلاق:12) " {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} الشورى : 52.

ويشكل الوحي قرآناً وسنةً موضوعاً رئيساً للمعرفة الإسلامية واهتماماً جوهرياً لثقافة المسلمين وموجهاً قوياً لحركة الأمة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية.. ويتعين الوحي سبيلاً وحيداً للمعرفة القطعية الضرورية للفهم والتعامل الجاد مع اليقينيات والكليات والعقائد والغيبيات وما لا سبيل إلى إدراكه بالحواس المجردة، حيث تبقى المعرفة المتحصلة بغير طريق الوحي ومنها المعرفة العقلية عاجزة عن النفاذ إلى جوهر الحياة محتبسة في حدود السطح والظواهر مهما تعمقت بها المناهج وتعددت المداخل؛كما تظل المعرفة غير المعززة بسلطان الوحي معرفة ظنية وإن ادعت الاقتراب من حدود اليقين، وهي نقطة جوهرية للخلاف بين بين الرؤية الإسلامية للعالم ورؤى العالم الأخرى.

فمصدر القرآن ومنطلقه هو الله عز وجل ليس لأحد في تكوينه من دور اللهم إلا مهمة الإبلاغ، وهو تعريف مهم للتمييز بين مستويات الوحي فمن الوحي ما يلهم الله معناه للعبد الذي يصوغ تلك المعاني بكلمات من عنده "كالحديث القدسي". أما القرآن فهو إلهي في لفظه ومعناه .... ويتميز الوحي القرآني بانعقاد إجماع الأمة على اختلاف طوائفها وفرقها ومذاهبها حوله من حيث حجيته التشريعية وطبيعته في حين تختلف بها المذاهب فيما يتعلق (بالسنة) من جوانب عدة[15].. ومن هنا يأخذ الوحي القرآني أهميته المعرفية وموقعه في مركز الوعي الإسلامي ممثلاً عنصر الثبات والأساس المعرفي المشترك بين المسلمين وتأتي السنة بحكم التصاقها بالواقع البشري وتقلباته ممثلة لعنصر النسبية والتغيُّر.

وفي ظل سيطرة الاعتقاد بأنّ (المعرفة العقلية) هي مكتسب إنساني خالص لا يتحفظ الإنسان المتعالي عن التصريح بأنّ العلم هو أعظم إنجاز بشري وأنّ العقل وحده هو الأداة الجبارة لتسخير الكون والتحكم فيه، إلا انه كان يبدو أكثر تواضعاً حيال حقيقة (الخلق) و أكثر ميلاً إلى الاعتقاد بأنّ قوة أعلى هي وحدها صاحبة الانجاز والقدرة فيما يتعلق (بالخلق)، ومع ذلك فقد يتطور إحساسه بكسبه المعرفي وتتضخم ثقته في امكاناته العلمية والإدراكية لدرجة من الطغيان تنتهي به إلى إنكار بدهية الخلق و إنكار وجود الخالق نفسه في بعض الأحيان.

من جانبه جاء القرآن ليقدم حكماً جازماً بأيلولة كل من (الخلق) و(المعرفة) إلى الله فيقول (أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) [الأعراف آية 54].

و(الخلق في القرآن الكريم) هو إيجاد الأشياء المادية من العدم ومن أهمها الإنسان والكون يقول تعالى :(لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) [غافر 57] و(الأمر) هو إيجاد الأشياء المعنوية من العدم ومن أهم هذه الأشياء الوحي والعلم يقول تعالى:(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ

---

[15] ولسنا هنا بصدد طرح المواقف الكلامية من قضية حجية السنة التي تعتبر الأصل الثاني من أصول الإسلام لدى عامة المسلمين وواحدة من محاور التمييز بين الفرق والمذاهب الإسلامية، فإذا كان الاتفاق قائماً تقريباً حول الآيات الدالة على معنى السنة من مثل قوله تعالى {وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى} (سورة النجم: الآيتين 3- 4) فإن مورد الخلاف نابع من تباين الآراء حول ما يعد من السنة ومن مصادرها ومرجعياتها، والموقف من الحديث النبوي وطرقه في الرواية والدراية، ونحو ذلك من خلاف لا نجد ما يماثله فيما يتعلق بالنص القرآني.

لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا) [الطلاق 12] ويقول: (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) [الشورى 52].

وقد شكلت مفاهيم "المعرفة" و"الخلق" و"الأمر" موضوعات رئيسة في الوحي القرآني، ويستخدم الخطاب القرآني حال حديثه عن المعرفة المكتسبة أسلوب المقاربة والمقارنة بين ثنائيات (الخلق والعلم) و(الخلق والمعرفة) أما عند الحديث عن المعرفة المطلقة المتمثلة في الوحي نجده يناظر مباشرة بين (الخلق والأمر)؛ وهو بذلك يؤكِّد على بدهية هامة مفادها أنه كما أنّ المخلوقات هي نتاج الفعل الإلهي فإنّ المعنويات والمفهومات والمدركات هي كذلك نتاج الأمر الإلهي .. وأنّ أمر الله ووحيه يستمر في التنزل ورفد المعرفة الإنسانية سواء عن طريق الوحي المباشر كما يحدث مع الأنبياء والرسل، أو عبر طرق أخرى كالإلهام الغريزي للحيوان يقول تعالى : (وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ) النحل آية 68 والتعليم قال تعالى: (وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ. . ...) [القصص آية 7 ويقول أيضاً: (الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ) [العلق آية 4].

وبالنظر إلى أول ما نزل من القرآن يمكن أنّ نتبين المعاني المشار إليها آنفاً؛ فمن خلال المناظرة بين مفهومي الخلق والعلم قدمت سورة القلم (إقرأ) دعوة إلى التسليم بربانية المعرفة جنباً إلى جنب مع التسليم بربانية الخلق { اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} العلق: 1 في ثلاث عبارات مختصرة استطردت السورة في شرحها بعد ذلك مؤكدة على حقيقة التدخل الإلهي في إيجاد المعرفة، لتحسم بذلك تساؤلاً بشرياً هاماً حول أصل المعرفة الإنسانية حين ربطتها منذ الوهلة الأولى بمسألة الخلق قاضية بأن المحرك الأول هو ذاته المعلم الأول؛ هو الإله الأزلي الخالد الذي خلق الخلق الأول وأنشأ النشأة الأولى واستمر برعايته ولطفه في هداية الإنسان وتوجيهه في صيرورته الدنيوية.

ويمثل العلم الصورة الظاهرية للمعرفة وهو في التصور الإسلامي ينقسم إلى قسمين:

القسم الاول (علم مطلق) شامل يستوعب في داخله الكليات والجزئيات والغيوب والظواهر وما حدث وما لم يحدث وهو نوع من العلم لا يجوز في المعتقد الإسلامي نسبته إلا لله، ولأهمية هذا العلم للإنسان في مسيرته الوجودية فقد تعين الوحي طريقاً وحيداً للتوصل إليه. وأعلى مصادره درجة هو القرآن الذي يتطلب للاستفادة من مضامينه ذهنية مستوعبة لحقيقة استناد الظواهر إلى عناصر منظورة (مشاهدة) وأخرى غير منظورة (غيبية)(ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ) "البقرة آية 1-2" وتلي القرآن في الدرجة (السُنَّة) التي تمثل آخر مراتب العلم المطلق (بما تتضمنه من الوحي) وأول مراتب العلم النسبي(بما تحتويه من اجتهاد بشري معزز بالوحي).

والقسم الثاني (علم نسبي) ظرفي مكتسب يتولد خلال تفاعل الإنسان والوجود الكوني والبشري في إطار الحياة الدنيا وأعلى درجاته السنة النبوية تليه في الدرجة اجتهادات الأمة. وهو ما يعني أن السُنَّة تحتوي في داخلها نوعين من المعارف بعضها يتسم بالإطلاقية لكونه وحياً والآخر بالنسبية لكونه صادراً عن النبي بصفته البشرية المحضة أو ما أقره من أفعال وأقوال الآخرين مما يمنح السنة موقعاً وسطاً بين العلم الإلهي المطلق الذي تمثل

موضع الطريق الأوحد للوصول إليه؛ والعلم الإنساني النسبي الذي تسعى باتجاه إعادة تشكيله وفق معطيات العلم الإلهي.

ثالثاً: معالم النمط الثقافي القرآني:

يبين القرآن منذ البداية أنه يسعى إلى إخراج نموذج بشري ذي خصائص واضحة ومحددة، وبالتالي فإن الثقافة بما هي انعكاس للفعل الإنساني المادي والمعنوي كانت وستظل موضوعا رئيسياً للقرآن، الذي يطمح لهداية الإنسان إلى النهج الذي يتيح له فهم الحياة وتقديرها كمشروع جاد، ويؤهله ليؤمن بالله كغاية عليا للكدح الإنساني ويؤمن بالإنسان (ممثلاً في الرسل) ومشروعه في الوجود داعياً إلى ثقافة كونية تزدري الجهل والخرافة المتمظهرة في النموذج "الوثني"دون أن تنكر الغيب وتعول على العلم والسنن والقوانين دون أن تهمل القدر.وترفض الظلم والعدوان دون ان تدمن التمرد وتمتهن الخروج على السلطان,ولبيان معالم النمط الثقافي القرآني سنعرض في البداية لفئة مثلت في التاريخ الإسلامي تجسيداً حياً للثقافة القرآنية هم فئة القرّاء، ثم نتجه مستفيدين من نتائج التأطير المنهجي السابق لاستعراض التصوير القرآني لبعض الرموز الثقافية.

1- جماعة القرَّاء كنموذج للمثقف القرآني:

لا شك أنّ النبي وأصحابه من المهاجرين من أهل مكة والانصار من أهل المدينة قد أسسوا لنمط الاجتماع الإسلامي الذي يجسد معاني القرآن في صورتها التنزيلية، وهو ما بشرت به الكتب السماوية السابقة ووثق له القرآن الكريم بقوله تعالى{ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَاللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُواالصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً }(29) " لقد شهد تاريخ العهد الأول تجليات عدة لهذا النمط البشري الذي أخرجه القرآن ممثلاً في مجتمع المدينة بعموم وفي فئة القرّاء بخصوص؛ وتمثِّل جماعة (القراء) حالة العكوف التخصصي على القرآن الكريم وهو ما كان يلقى من النبي نظرة خاصة وإن لم تصل الينا بشكل صريح إلا أنّ تقديره لأهميتهم واضح في كثير من المرويات منها ما يروى حول مأساة بئر معونة فقد دعا النبي على القبائل التي تآمرت على اغتيالهم شهوراً عدداً ويورد البغوي في تفسيره (وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إلاَّ مِنْ عِندِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ 126 لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ 127 لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ 128) "آل عمران: 126-128" اختلفوا في سبب نزول هذه الآية فقال قوم نزلت في أهل بئر معونة وهم سبعون رجلاً من القراء بعثهم رسول الله ρ إلى أهل بئر معونة في صفر سنة أربع من الهجرة على رأس أربعة أشهر من أحد ليعلموا الناس القرآن والعلم أميرهم المنذر بن عمرو فقتلهم"[16].

كما أنّ هذه الفئة كانت تحظى بتقدير مماثل من الخلفاء الراشدين فنجد عمر وهو على فراش الموت يقول لو كان سالم مولى أبي حذيفة حياً لوليته، سنلاحظ أيضاً أن دور هذه الفئة يأخذ في التزايد كلما ابتعدنا عن الحقبة النبوية . فقد كانت

[16] البغوي، 1/ 349.

المجموعة في طليعة المتصدين لظاهرة الردة التي ظهرت في باية عهد أبي بكر الصديق ففي حروب الردة استشهد منهم (700) شهيد وقد ترتب على ذلك تفكير الخليفة الراشد في جمع القرآن الذي أوكل به أعلم الصحابة بالقرآن "أبي بن كعب"[17].

وحتى في عهد الخلافة الأموية لقيت مجموعة القراء اهتماماً كبيراً من قبل القيادة السياسية" وقال سلام أبو محمد الحماني إنّ الحجاج جمع (القراء والحفاظ والكُتَّاب) فقال اخبروني عن القرآن كله كم حرف هو قال فحسبنا فأجمعوا أنه ثلثمائة ألف وأربعون ألف وسبعمائة وأربعون حرفا قال فأخبروني عن نصفه فإذا هو إلى الفاء من قوله في الكهف (وليتلطف) وثلثه الأول عند رأس مائة آية من براءة والثاني على رأس مائة أو إحدى ومائة من الشعراء والثالث إلى آخره وسبعه الأول إلى الدال من قوله تعالى (فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ) والسبع الثاني إلى التاء في قوله تعالى في سورة الأعراف (أولئك حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ) والثالث إلى الألف الثانية من قوله تعالى في الرعد (أكلها) والرابع إلى الألف في الحج من قوله (جعلنا منسكا) والخامس إلى الهاء من قوله في الأحزاب (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ) والسادس إلى الواو من قوله تعالى في الفتح (الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ) والسابع إلى آخر القرآن قال سلام أبو محمد علمنا ذلك في أربعة أشهر .[18]

2- اللغة وسؤال الثقافة:

تمثل اللغة هبة فطرية ميز الله بها الجنس البشري { خَلَقَ الإنسَانَ * عَلَّمَهُ البَيَانَ}"سورة الرحمن: 3-4". وقديماً عرَّف الفلاسفة الإنسان بأنه حيوان ناطق، ويعرض القرآن حقيقة التعدد اللغوي باعتباره آية من آيات الله (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ) " الروم:22"[19]. وفي خضم هذا التباين تبقى اللغة محدداً أولياً للخصوصية الثقافية وباكتسابها يكتسب الفرد أول معالم هويته الثقافية وعبرها تنتقل بقية مكونات الثقافة قال تعالى "وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم" ويمثل التواصل جانب التعبير عن هذا الوجود والذي تنعكس صورتهً في الجوانب الثقافية من الحياة الإنسانية.

والأهمية الثقافية للغة راجعة لكونها أحد عوامل التنوع والاختلاف الذي يسم الحياة الإنسانية "فالتنوع الثقافي في القديم والحديث بين الشعوب والأمم والقبائل والمجموعات الصغيرة هو في المقام الأول نتيجة للاختلاف بينها في اللغات"[20].

---

[17] وكان أول من كتب لرسول الله ﷺ حين قدم المدينة، وهو من أشهر كُتَّاب الوحي؛ قال فيه(ﷺ) : أقرؤهم لكتاب الله أُبيُّ بن كعب رواه الإمام أحمد . ويدل على رسوخ باعه في قراءة كتاب الله أن رسول الله ﷺ طلب منه أن يقرأ القرآن عليه، ففي "الصحيحين" من حديث أنس رضي الله عنه، قال: إن النبي ﷺ قال لأُبيّ :(إن الله أمرني أن أقرأ عليك :{لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب }قال: وسماني؟ قال : نعم، فبكى)، وفي رواية:(إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن، قال أُبيٌّ :آلله سماني لك؟ قال:الله سماك لي، فجعل أُبيٌّ يبكي) ,وفي رواية ثالثة عند أحمد، قيل لأُبيٍّ :يا أبا المنذر .أفَفرحت بذلك؟ قال: وما يمنعني، والله تبارك وتعالى يقول} :قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون) {يونس:58}.

[18] ابن كثير 8/1 بن كثير 23/1 الآيات " الفاتحة: 2".

[19] أنظر :محمود الذوادي : مقاربة عربية في مركزية الثقافة في هوية الإنسان، ورقة علمية غير منشورة مقدمة لمؤتمر التحيز والمسارات المتعددة للمعرفة (القاهرة فبراير 2007م).

[20] -Kivisto P (2002) Multiculturalism in A Global Society , Oxford , Blackwell Publishing

1. **القرآن والثقافة العربية:** .ويؤكد القرآن في تسعة مواضع منه أنه جاء بلسان عربي مبين[21] لقد تنزل القرآن في جزيرة العرب والعرب يومها أمة أمية لا تقرأ ولا تكتب ولا تهتدي في دينها بكتاب من الله أو أثارة من العلم، خالية حياتهم من معرفة حقيقية بالدين إلا بقايا من الكتابيين، وقد اتسم الموقف العربي من القرآن في لحظات تنزله الأولى بالحدة في الرفض وفي القبول كمظهر ومضمون، ومرجع ذلك إلى أن القرآن قبل تكونه الكلي وتمام ملامحه كظاهرة معرفية كان يتعامل معه كادعاء قابل للإثبات والنقض {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ}(سبأ:43) "وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلما وزورا" (الفرقان:4) لذلك نجد أن مساحة واسعة من الوحي أفردت لتقديم الحجج المنطقية والتاريخية الدالة على صدقية الرسالة وقد مثلت الإحالة الثقافية واحدة من استراتيجيات الإقناع التي لجأ إليها القرآن {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ } (الأحقاف 10) "أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ" (الروم:9) وفي نفس السورة "قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ" (الروم:42)

إلا أنّ التعلق الثقافي بالعربية لم ينظر كإيجابية في كل الأحوال وهو ما عكسه المستشرق الفرنسي (جاك بيرك) "إن الوحي القرآني كان يتم بلهجة قريش. وإن هذه لتعد من منظور فقه لغوي قريبة من لهجة الشعراء العرب قبل الوحي وبعده...كان هذا التناظر من القوة إلى درجة أن الرسول قد رأى أن يدفع عن نفسه تهمة النظم (الشعري) أو تهمة الكهانة"[22].

فلما توفرت للأثر القرآني مبررات البقاء وتحقق كظاهرة ماثلة في الحياة يشكل التعامل معها تحدياً للمجتمع العربي الوثني في أعز ما يملك المعتقد والسلطة الدينية والثقافية على حساب الوثنية والشعر، تغيرت أساليب التعامل معه من قبل المحيطين به فالوثنية نظرت إليه كمرآة لتحليل النموذج الوثني ونقده وتفكيكه.كان مظهر قوة القرآن في مصدره غير البشري ومن ثم حيادية أحكامه وحقائقه وصدقية قضاياه ودعواه وإطلاقية محتواه وتحرره من الذاتية والظرفية، وقد انعكست هذه الملامح في محتواه فرغم انطلاقه من رحم الواقع العربي إلا أن رؤيته كانت تتسم بسعة غير متفهمة من قبل غالب أهل الجزيرة العربية والعمق غير المرغوب في تجشمه للعقلية الوثنية.

كما زامن من تنزل عليهم القرآن وعايشوا معالم كثير من الحضارات والثقافات المحيطة بهم، متخذين منها موقف الاستسلام والسلبية والسؤال هنا كيف صاغ القرآن وكون موقف المسلمين من ثقافتهم المحلية المتدهورة؟ وكيف نظم علاقتهم بثقافات من يحيط بهم من الشعوب؟ وما مدى توافق ذلك ومخالفته للتوجهات التقليدية للعرب في ذلك الوقت؟

[21] محمد بابكر العوض،أصول الظاهرة الاتصالية في القرآن الكريم، تفكُّر ، مجلد (7) ، عدد (1) ، 2005م ص141.

1- جاك بيرك: "القرآن وعلم القراءة" دار التنوير- بيروت، ط1 1996، ص109.

يبين القرآن كيف كان تنزله على أمة ذات كسب ثقافي متواضع { هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ }"الجمعة:2".

وقد جسد الشعر العربي القديم حالة الشخصية العربية

حيث قال شاعرهم : وما العيش إلا خيمة في تنوفة وتمر على ظهر النخيل وماء

وهل **أنا إلا من غزية** أن غوت .. غويت وإن ترشد **غزية** أرشد

كان العرب في منظور معاصريهم من أهل الكتاب مستضعفين ثقافياً حيث وقعوا بين الاستعلاء العرقي لليهود في مكة والمدينة، والاستعلاء الديني والحضاري للمسيحيين الرومان هذا إلى جانب طغيان الحضارة الفارسية في منطقة فارس واليمن، كيف عالج القرآن هذا الانكسار الحضاري؟.

لقد عزز القرآن المكون الإيجابي للثقافة العربية وهو جانب البلاغة والفصاحة والبيان كونه جاء بلسان عربي مبين.وأكسبه موقفاً إيجابياً من الثقافات المعاصرة له حين بين العلاقة الموضوعية بين القرآن وما سبقه من الكتب معتبراً ذلك شرطاً من شروط التعامل الرشيد مع القرآن"والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ،، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون"(البقرة:45).

أكد على القراءة كقيمة محورية للحضارة العربية بعد نزول القرآن فقضى بذلك على أهم مرتكزات الاستضعاف الثقافي للعرب فجاء أول القرآن بـ{ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} العلق: 1 فأحالهم من امة أمية غلى أمة قارئة.

لقد منح القرآن للعربية سلطاناً ثقافياً حيث صيرها لغة رسمية للإسلام فتعلمتها الشعوب الإسلامية اختيارا كما دخلت الإسلام قبل ذلك طوعاً،وتولد من رحم هذا التلازم بين القرآن والعربية فنون "الخط العربي"و"علوم النحو العربي"على يد أبي الأسود الدؤلي والخليل ابن أحمد الفراهيدي "الذي دون إلى جانب ذلك أحكام التجويد" وأنشأ علم العروض وإلى جانب تلك المعارف القرآنية برزت فنون الخط العربي وفنون التلاوة ترتيل وتجويد، ومعرفة بالمقامات الموسيقية لتوثيق الصيغ الصوتية للقراءة[23].

على المستوى المعرفي علينا أن نعترف أن هناك ضعف في المعرفة بتاريخ القرآن بعموم وعدم قدرة على تصور النطاق المكاني الجغرافي الذي شكَّل ساحة للمضامين القرآنية وكان ناتج ذلك غياب الوعي بالسنن التي تحكم التعاطي بين القرآن والسنة والواقع. الوعي بالواقع الظرفي الذي ترتبت عليه الآيات قائماً على علاقة شبه علِّيَّة أو سببية أو علاقة تناص في بعض الأحيان. فعلى أساس السببية ظهر علم (أسباب النزول) وانبثق عن العلاقة التوليدية بين القرآن والواقع أو(آثار القرآن) بزوغ ثقافة جديدة ،ونموذج إنساني جديد ،رؤية كلية جديدة للكون والحياة. أما علاقة الهيمنة على

---

[23] انظر: حجازي، محمد الواحد ،اثر القرآن الكريم في اللغة العربية ، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر،(1998جامعة إندبان)

التراث الإنساني القائم (الديني والسياسي) اليهود والنصارى والوثنيين (مكة – فارس- الروم).فلا زالت ساحة الابتلاء فيها قائمة.

3- الدين: التوحيد كمقصد رئيس للحياة الإسلامية:

عالج القرآن مسألة العقيدة لا باعتبارها موضوعاً عقلياً فحسب بل عالجها في أبعادها المنطقية والوجدانية فعرض القصص القرآني لعدد من التجارب الإنسانية التي تصور مرارة الشك العقدي نموذج إبراهيم {الَر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ}"إبراهيم:1" وتبرز التحديات التي عاشها رموز من البشر أبرزوا الجهاد الإنساني الطويل في سبيل إرساء عقيدة التوحيد،ومثلوا النموذج الذي تدعوا له رسالة القرآن{فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ}"الأحقاف:35" وهو المعنى الذي تجسّد في حياة الأفراد واقعاً معاشاً ومشروعاً للحياة على النحو الذي عبَّر به ربعي بن عامر "جئنا لنخرج الناس من عبادة العباد لعبادة رب العباد"، كما أسس لعقيدة التوحيد كشرط بقاء للأمة الإسلامية بأجمعها قال تعالى{ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ... }"ألعمران :110" وقال أيضاً :"وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم" " محمد:38".

4- المعرفة: ومركزية مفهوم القراءة:

إنّ تبين معالم النمط الثقافي القرآني رهن بتتبع المحتوى القرآني منذ أول آيات القرآن نزولاً "إقرأ" تلك الآيات التي تعكس مركزية مفهوم القراءة، في البنية الثقافية القرآنية. ولبيان مشروعية القراءة التحليلية نفسها لابد من الوقوف على بعض الجوانب المتعلقة بالتراث التحليل والتفسيري لدى المسلمين. فعلى أفق الماضي ساهم القرآن والاهتمام به من قبل المسلمين في رفع مستوى الإحساس بالنص وقد نبهت دعواته المستمرة للمسلمين للتدبر و الإدّكار والنظر في آيات الكتاب الحكيم والسعي إلى تحصيل المراد الإلهي من كلمات المصحف الكريم إلي رفع الحاسة التحليلية لدى علماء المسلمين.

ولا يعرف كتاب في التاريخ خضع لعمليات الفحص والتحليل كالقرآن الكريم، ولعل ذلك ما حدا بالمفكر الفرنسي "جاك بيرك" بكتابة سفرة القيم "القرآن وعلم القراءة ".

"لقد قاد البحث في معاني القرآن المسلمين إلى مساقات في المعرفة اللغوية ما كان لهم أن ينتبهوا إليها لولا عمق الرغبة في تحصيل المراد الإلهي. وقد عملت مدارس التفسير وعلوم القرآن في ذلك النص الشاهد محللة له من حيث بنائه الأبجدي والصوتي واللفظي هذا خلاف تحليل معانية .. وتعددت زوايا النظر إليه باختلاف مذاهب ومشارب الدارسين له، وتكونت على تخوم النص القرآني علوم ومعارف أثرت علوم اللغة وطورت أساليبها وهذبت سلوك مستخدميها"[24].

[24] أنظر: العوض، محمد بابكر: أصول الظاهرة الاتصالية في القرآن الكريم،مجلة تفكر العدد (1) المجلد (7)2005 الصفحات: (من :ص139 ،إلى:ص186)

ويدون التراث الإسلامي لعدد من الشواهد على عمق التجربة الإسلامية في التعامل مع النص تعاملاً تجاوز الظاهر المجرد والمعالم الدالة على ذلك في التراث لا تحصى[25]. والأمثلة على تعمق المفسرين في تحليل الكتاب الكريم بما يتجاوز الظاهر المجرد للألفاظ أكثر من أن تحصى.

وعلى الأفق المعرفي المعاصر غدت الأهمية العلمية لتحليل النصوص قناعة شائعة وأمر بالغ التأكيد ، وقد نسجت على تخوم النص مدارس لغوية وفلسفية تمثلها ألسنية (دوسوسير) وبنيوية وتفكيكية (فوكو وهيدجر) وتواصلية (هابرماس).. .ويندرج المنهج الذي اختارته هذا البحث ضمن ذلك النوع من الدراسات الهادفة إلى تحليل النص.

5- الفن والجمال في الخطاب القرآني:

لقد عالج القرآن موضوعات الفنون من الرسم والنحت والمعمار، في كثير من الآيات وقد حوى القصص القرآني كأداة تعبيرية تنويها بأشكال التعبير الفني وحكم عليها من حيث غايتها ومقصدها قال تعالى "يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل .. الآية" ولكنه في ذات الوقت اهتم بإشاعة الإحساس بالجمال كقيمة إنسانية رفيعة وعنى بتنمية الذائقة الفنية والجمالية للمسلم {انظُرُواْ إِلِى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}(الأنعام:99) وقال تعالى {أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ}(ق:6)بل طرح صفة الجمال على المعاني فقال *{فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا }(المعارج:5) وقال تعالى {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ }"الحجر:85".

حتى الخلافات التي ثارت حول مشروعية بعض الفنون مثل الغناء والموسيقى لعبت فيها الاختلافات الثقافية بين الفقهاء دوراً كبيراً.. لقد جاء التشدد في الموقف من بعض الفنون نتيجة للقصور في تحصيل الثقافة القرآنية التي أخذت تضمر لحساب تضخم المحصول الثقافي فيما يتعلق بعلوم السنة والحديث مما أفضى في عصور الانحطاط الحضاري للمسلمين إلى احتقار الفنون وإهمال حتى الجوانب الوظيفية للفن مثل التجسيم لغرض التعليم والدراسة، وانعكس أيضاً على المعمار وتخطيط المدن وانقلب من بعد ذلك حتى على الذوات المفردة من المسلمين حتى غدا التقشف المبتذل صفة لشخصية المسلم عوضاً عن الاتجاه الجمالي في السمت والمظهر الذي ظل ينتظم الشارع المسلم منذ الهجرة وغدا ملمحاً من ملامح التحول الإسلامي.

إنّ الرؤية القاصرة التي ظلت تتعامل مع القرآن باعتباره مصدراً للتشريعات والأحكام وعجزت عن النظر إلى ما حواه من موجهات ثقافية وتميز به من عناصر إلهام فردي وجماعي أسهمت في تكريس وجهة نظر سلبية للفنون ومظاهر التعبير الإنساني.

[25] لعل منها (كتاب الفوائد المشوق لعلوم القرآن لابن القيم وغرائب ما سجله من مفارقات وطرائف وخواص تتعلق بالنص القرآني قل نظيرها في سائر النصوص و(الكشاف) للزمخشري و ما حواه من روائع في التحليل اللفظي والبلاغي للقرآن منها طريف قوله في الحروف المقطعة "اعلم أنك إذا تأملت ما أورده الله عز سلطانه في الفواتح من هذه الأسماء وجدتها نصف أسامي حروف المعجم أربع عشر سواء في تسع وعشرين سورة على عدد حروف المعجم ثم إذا نظرت في هذه الأربعة عشر وجدتها مشتملة على أجناس الحروف ، بيان ذلك أن فيها من المهموسة نصفها ومن المجهورة نصفها ومن الشديدة نصفها ومن الرخوة نصفها ، ومن المطبقة نصفها ، ومن المنفتحة نصفها ومن المستعلية نصفها ومن المنخفضة نصفها ومن حروف القلقلة نصفها"أنظر: ميرغني، جعفر:" القرآن وعلم الهجاء ، مجلة دراسات أفريقية العدد 22 * 18 ديسمبر 2002.

لقد أحيا الإسلام ألواناً من الفنون ، ازدهرت في حضارته وتميزت بها عن الحضارات الأخرى مثل فن الخط والزخرفة والنقوش : في المساجد ، والمنازل ، والسيوف، والأواني النحاسية والخشبية والخزفية وغيرها .كما اهتم بالفنون الأدبية التي نبغ فيها العرب من قديم ، وأضافوا إليها ما تعلموه من الأمم الأخرى ، وجاء القرآن يمثل قمة الفن الأدبي ، وقراءة القرآن وسماعه عند من عقل وتأمل إنما هما غذاء للوجدان والروح لا يعدله ولا يدانيه غذاء ، وليس هذا لمضمونه ومحتواه فقط ، بل لطريقة أدائه أيضاً ، وما يصحبها من ترتيل وتجويد وتحبير تستمتع به الآذان ، وتطرب له القلوب ، وخصوصاً إذا تلاه قاريء حسن الصوت، ولهذا قال النبي (ﷺ) لما سمع أبا موسى الأشعري يقرأ القرآن ويتغنى به قال :**لقد أوتيت مزمارا من مزامير آل داود** .(رواه البخاري ومسلم).

6- البعد القيمي للثقافة القرآنية:

يؤسس القران لمنهج حياة شاملة ؛ لا لملة محصورة الهم في حدود التكاليف الفردية والشرائع والأحكام والعبادات ؛ ولا في نطاق الأمة المحدودة التي يجمعها الجنس والمكان أو اللغة واللسان. وفي هذا البناء تأخذ الجوانب القيمية والأخلاقية موقعاً مركزياً، ويؤسس القران لحياة متماسكة البناءات تكون نموذجاً شاهداً على الدوام للحياة الصالحة ، ومعيار الصلاحية هنا ليس هو مجرد الصلاح الذاتي للفرد أو الجماعة بل قوامه توفر إرادة الإصلاح العام ، حيث يعتبر الانكفاء والانعزال عن عملية الإصلاح خطراً يعرض المجتمع للفساد المفضي إلى السخط الإلهي ، ومعلوم أنّ توفر إرادة الإصلاح هي سبيل النجاة من الظلم ؛ لأنّ هذه الإرادة تقطع الطريق على الطغيان؛ قال تعالى: (وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ) "هود الآية 117". وهذا الصلاح المتعدي هو مناط خيرية هذه الأمة؛ قال تعالى : (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ)" آل عمران الآية 110". ولا شك أن الجدال بالحسنى وتقديم القدوة هي أفضل السبل للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وقد أكّد الرسول ﷺ على هذه المعاني فقال "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" .

خامساً:خصائص الخطاب الثقافي للقرآن:

غالباً ما يقود مفهوم الثقافة إلى النظر في الأبعاد التواصلية والإعلامية مما يلفت الانتباه إلى فاعلية الرسالة القرآنية سواء من حيث البناء التقني أو قوة المضمون ويجعلها مضماراً مفتوحاً للتنافس البحثي ويعطي تطور الدراسات القرآنية بهذا الاتجاه دلالة على اهتمام الأمة بالقيام بواجبات الشهود وذلك لتعلقها القوي بمفهوم الدعوة والبلاغ.

وسنلاحظ أنّ البناء الخطابي للقرآن يعتمد آلة متناسقة الحركة منتظمة الإيقاع يتناغم فيها الداخلي والخارجي والشكل والمضمون، وقد شدّ هذا التناغم انتباه عدد من الباحثين في العلم قديماً وحديثاً ، وتمثل دراسات الإعجاز مجلى واضحاً لهذا المعنى فقد ظل التساؤل عن مظان الإعجاز في النص القرآني "هل هو في المعنى أم المبنى " تساؤلاً ظل يشغل أذهان الباحثين.

ولقد أحدث التلاقح الماثل بين الفكر الغربي الذي فرض نفسه على البيئات الإسلامية الحديثة الانتباه إلى مكامن للقوة في النص القرآني لم يكن الانتباه إليها متاحاً في ظل غلبة وانتشار ثقافة التسليم العاطفي على الوعي الإسلامي. ومن الطبيعي أن تنعكس على الطريقة التي يعالج بها العلماء المسلمون النص القرآني، فكان مما لفت المحدثين من علماء

المسلمين من تقنيات الخطاب القرآني ـ مضمونه المنطقي، وقدرته العالية على سوق الحجج وتنظيمها بحيث تكون سبيلاً ميسوراً إلى الوصول بالمتلقي إلى حالة من الرضا والاقتناع المفضي إلى التسليم بالحقيقة القرآنية. وقد استخدم بعض العلماء المناهج المحدثة في سبر النص القرآني للوصول إلى مواقع القوة المنطقية في بنائه، خاصة من جانب ما ينطوي عليه النص القرآني من قدرة عالية على الإقناع ويمكن تصنيف هذا النوع من الدراسات إلى قسمين :قسم اهتم بدراسة أساليب الحجاج القرآني استناداً على منهج فلسفي منطقي، وقسم لجأ إلى استخدام منهج دراسات الإقناع في علوم الاتصال في تتبع أساليب الإقناع في القران الكريم، وكان ناتج عمل الفريقين إضافات مقدرة لمناهج التعامل العصري مع القرآن الكريم ، وقد ساعد في السير بهذا الاتجاه تطورات متعلقة بتطور المعرفة الإنسانية والتساؤلات المستجدة للإنسان المعاصر و ظروف الواقع المتجددة.

وتعكس دراسات الخطاب القرآني كيف أصل القرآن لثقافة إعمال العقل والبحث عن الدليل والبرهان واحلها مكان التفكير الخرافي الذي أصلت له الوثنية العربية والتفكير المنكر للغيب الذي أصلت له الوثنية اليونانية ، وجعلت العلم العقلي مرجعية ثانية إلى جانب العلم النقلي.

عالمية الخطاب القرآني:

ومن الخصائص الثقافية للخطاب القرآني كونه خطاب عالمي عمل على استيعاب المجتمع العربي في إطاره الإجتماعي والثقافي من خلال نزول القرآن بلغة العرب ولكنه حول سرعان ما حول (اللغة العربية) من دلالة ثقافية إلى لغة عالمية محايدة ثقافياً فهي لغة التعبير عن الحضارة الإسلامية التي تضم في إطارها كما هائلاً من الثقافات الفرعية، تماماً كما أصبحت اللغة الإنجليزية (والفرنسية على حد ما) لغة للحضارة اللبرالية الغربية.

إلى جانب ذلك فقد قام بخلق نموذج بشري متعولم قبل 1400 سنة حيث استطاع المسلمون الأوائل أن يميزوا بين التزاماتهم الثقافية وانتماءهم الأممي للإسلام فتم استيعاب عدد من الشعوب في إطار الثقافة الإسلامية وفق استراتيجيات متباينة بعضها اجتماعي وبعضها الآخر ثقافي وفي حالات نادرة جاءت عملية الدمج نتيجة للمواجهة العسكرية.وهو جزء من واقعية النموذج الثقافي الي ينتجه الإسلام { وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ } "البقرة: 251".

الخاتمة:

وغاية القول أنّ القرآن قد أسهم في إحداث تحولات ثقافية واسعة النطاق بدأت بإحداث تحول معرفي كبير حشد كل الطاقات للخروج بالمجتمع العربي من مرحلة الأمية الحضارية والأبجدية إلى مرحلة المعرفة والريادة وقيادة التنوير العالمي، كما ساهم القرآن في إخراج نموذج إنساني له خصوصيته على المستوى الفردي والاجتماعي، كما أسهم القرآن في إعادة صياغة اللغة العربية وعولمتها فتركت أثرها على لغات العالم الإسلامي التي تأثرت مفرداتها بالقاموس القرآني أيما تأثر. كما أسهم القرآن في تحويل المجتمعات العربية من مجتمعات أمية إلى مجتمعات قارئة، وساهم في أيجاد أسلوب للحياة شامل ومتميز.

و يمكن نقرر في خاتمة هذا البحث الارتيادي في مدخله أن من أهم ما يمتاز به منهج التحليل الثقافي أنه يهتم بالتأثيرات النفسية (السلوكية) والاجتماعية والمعرفية بينما يقل اهتمامه بجوانب استنباط الأحكام إلا في إطار علاقتها بتلك التأثيرات. وهذا مع عدم الانكار لما لعملية استنباط الحكم الفقهي من أبعاد ثقافية.كما أنّ من مزايا هذا النوع من التحليل أنه ينشط في السياقات الحوارية غالباً وفي سياقات الخطابات الدعوية ومن ثم فإنّ له تأثيراً قوياً وسريعاً على الجمهور. حيث إنه يقوم على الاستفادة من المنهجية المعاصرة للعلوم الاجتماعية والانسانية بشكل خاص ومناهج العلوم الطبيعية على نحو عارض.

ويمكن تلخيص ما انتهى له البحث في الآتي:

1- هناك ندرة في المعالجات الإسلامية لموضوع الثقافة من منظور قرآني أرجعها البحث إلى عدة أسباب أيدلوجية ومعرفية.

2- لم يتوقف القرآن في معالجته لمسألة العقيدة باعتبارها موضوعاً عقلياً فحسب بل عالجها في أبعادها المنطقية والوجدانية فعرض القصص القرآني لعدد من التجارب الإنسانية التي تصور مرارة الشك العقدي نموذج إبراهيم وتبرز نماذج للجهاد الإنساني الطويل في سبيل إرساء عقيدة التوحيد.. وهو المعنى الذي تجسد في حياة الأفراد واقعاً معاشاً ومشروعاً للحياة

3- أكد القرآن على أهمية البعد الثقافي في إنجاح الدعوة فعرض القصص القرآني الصلة الثقافية بين الأنبياء والرسل وثقافات أقوامهم كشرط ضروري لتحقيق البيان والبلاغ قال تعالى "وما ارسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم".

4- لقد عزز القرآن المكون الإيجابي للثقافة العربية وهو جانب البلاغة والفصاحة والبيان كونه جاء بلسان عربي مبين.وأكسبه موقفاً إيجابياً من الثقافات المعاصرة لنزوله حين بين العلاقة الموضوعية بين القرآن وما سبقه من الكتب معتبراً ذلك شرطاً من شروط التعامل الرشيد مع القرآن واضعاص النواة الأولى للتواصل بين الثقافات الإنسانية.

5- ومن الخصائص الثقافية للخطاب القرآني كونه خطاباً عالمياً استطاع أن يخرج (اللغة العربية) من دلالتها الثقافية المحدودة إلى لغة عالمية محايدة ثقافياً في تعبيرها عن الحضارة الإسلامية التي تضم في إطارها كما هائلاً من الثقافات الفرعية، تماماً كما أصبحت اللغة الإنجليزية (والفرنسية على حد ما) لغة للحضارة اللبرالية الغربية . كما منح القرآن للعربية سلطاناً ثقافياً حيث صيرها لغة رسمية للإسلام فتعلمتها الشعوب الإسلامية اختيارا كما دخلت الإسلام قبل ذلك طوعاً،وتولد من رحم هذا التلازم بين القرآن والعربية فنون "الخط العربي"و"علوم النحو العربي".

6- أسهم القرآن في التوجيه القيمي للثقافة الإسلامية فازدهرت التعبيرات الثقافية والفنية الدالة على التوحيد على حساب الأنواع المعبرة عن النمط الثقافي الوثني فلم يعد مستغرياً أن تزدهر الفنون الفطرية مثل الفنون القائمة على الصوت البشري(التلاوة والإنشاد) والنزعة التجريدية للفنون التشكيلية (في عمارة المصاحف وتزيين المصاحف) وجاء ذلك على حساب بعض أنواع النحت والموسيقى والفنون التعبيرية ذات الجذور الوثنية.

7- يقتضي تفعيل البعد العالمي للخطاب القرآني وعي القائمين على امر الدعوة بالأبعاد الثقافية للمحتوى القرآني من ناحية ووعيهم بالاتجاهات الثقافية للمجتمعات موضوع الدعوة.

المراجع

القرآن الكريم

صحيحي البخاري ومسلم

الكتب:

1- **إيجلتون، تيري** : فكرة الثقافة ، ترجمة ثائر ديب، دار حوار 2000م.

2- **بيجوفيتش، علي عزت**: الإسلام بين الشرق والغرب، ترجمة :محمد يوسف عدس، بيروت مؤسسة العلم الحديث 1993م

3- **بيرك، جاك:** "القرآن وعلم القراءة" دار التنوير- بيروت ط1 1996،

4- **الذوادي، محمود:** مقاربة عربية في مركزية الثقافة في هوية ا لإنسان، ورقة علمية غير منشورة مقدمة لمؤتمر التحيز والمسارات المتعددة للمعرفة (القاهرة فبراير 2007م).

5- **الذوادي، محمود:** مجلـة : المنار الجـديد (عدد:33 السنة التاسعة محرم :1427هـ - يناير:2006م. بـعنوان : " مـفاهيم عربـية جديدة في العلوم الاجتماعية ".

6- **سعيد، ادوارد:** الاستشراق : المعرفة ،السلطة، الانشاء ترجمة كمال أبو ديب مؤسسة الابحاث العربية(بيروت- الطبعة الرابعة 1995)

7- **الميلاد، زكي:** المسألة الثقافية من أجل بناء نظرية في الثقافة، المركز الثقافي العربي بيروت 2005م.

8- **بن نبي، مالك**: مشكلة الثقافة، ترجمة عبد الصبور شاهين، دمشق دار الفكر،2000م.

9- **ميرغني، جعفر**:" القرآن وعلم الهجاء ، مجلة دراسات أفريقية العدد 22 * 18 ديسمبر 2002.

10- Kivisto P (2002) Multiculturalism in A Global Society , Oxford , Blackwell Publishing-

الأوراق البحثية:

1- **العوض/ محمد بابكر:** أصول الظاهرة الاتصالية في القرآن الكريم، تفكُّر ، مجلد (7) ، عدد (1) ، 2005م

2- محاولة قراءة وظيفية لمنهجية حاج حمد في التعامل مع القرآن الكريم. **تفكُّر** ، مجلد (10) ، عدد (2) ، 2010م.

3- **المنار الجـديد** (عدد:33ص: 43) السنة التاسعة محرم :1427هـ - يناير:2006م. بـعنوان : " مـفاهيم عربـية جديدة في العلوم الاجتماعية ".